الدكتور أحمد إبراهيم العدوي

السفراء العرب إلى أوروبا في العصور الوسطى

المجلة

العدد رقم ٣٢

أغسطس ١٩٥٩

السفراء العرب إلى أوروبا

في العصور الوسطى

بقلم الدكتور ابراهيم أحمد العدوى

كانت الفتوح الإسلامية التى حمل العرب لواءها فى القرن السابع الميلادى سبباً فى تكوين دولة شاسعة الأطراف ، جاورت حدودها القوى الأوروبية الكبرى ، وهى الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق [١] ، ودولة الفرنجة فى الغرب [٢] . واقتضت طبيعة الجوار قيام نوع من العلاقات الدبلوماسية بين العرب وتلك القوى الأوروبية ، استهدفت نفس الأغراض التى يقوم بها رجال السلك السياسى فى الوقت الحاضر . فالسفير العربى أشبه بالسفراء فى الوقت الحاضر يمثل الخليفة ، أى رأس الدولة ، يتكلم باسمه ، ويفاوض عنه ، ويبرم العقود والمعاهدات نيابة عنه . وكان الاختلاف الوحيد القائم هو أن السفراء العرب لم يتخذوا لأنفسهم دور سفارات قائمة فى أوروبا على نحو ما نشاهده اليوم ، وإنما كانوا أشبه بما نعرفه فى الوقت الحاضر بالسفراء .. فوق العادة ، الذين يوفدون فى مهام رسمية ، وينتهى تمثيلهم الدبلوماسى بانتهاء العمل الذى يوفدون من أجله ، مثل عقد معاهدة ، أو إجراء فداء ، أو حضور حفلة زفاف ، أو التهنئة بتولى العرش .

(١) الإمبراطورية البيزنطية ، هى الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو دولة الروم كما سماها بذلك العرب ، وعاصمتها القسطنطينية . وكان لتلك الإمبراطورية علاقات دبلوماسية كبرى مع العرب كما سيتضح من النص .

(٢) دولة الفرنجة تنسب إلى جماعات جرمانية تعرف بالفرنجة ، وفدوا على بلاد الغال وهى فرنسا الحالية فى القرن الخامس الميلادى ، وأسسوا لأنفسهم بها دولة بعد زوال الإمبراطورية الرومانية من غرب أوروبا .

وفيما عدا الاختلاف السالف الذكر كان السفراء العرب يختارون وفق أدق القواعد التى لا تختلف عن النظم التى تتبعها الدول الحديثة اليوم عند تعيين سفرائها . فالمعروف أن الدول الحديثة فى الوقت الحاضر تنتقى سفراءها طبقاً لقاعدتين : الأولى عقد مسابقات علميـة عامة يختبر فيها المرشح وتدرس صفاته . والأخرى اختيار من يُعرف بالمقدرة الفائقة والدهاء ، وذلك دون امتحان أو مسابقـة . واتبع العرب الطريقتين السالفتين نفسهما مع تعديل يسير فى الطريقة الأولى ، فكان الخلفاء يقومون بأنفسهم باختبار المرشحين للسفارة وذلك بعد أن ينتهى أولو الأمر المختصون بالسلك السياسى من إجراء الدراسات اللازمة عن أولئك المرشحين . وكان هناك ديوان يسمى ديوان الرسائل ، يختص بالمكاتبات مع الملوك وغيرهم من رؤساء الدول المجاورة للعرب ، يتولى رئيسه أو صاحبه التمهيد لاختيار السفراء وإعداد الكتب التى يحملونها . واهتمت مصر ولا سيما فى العهـد الفاطمى بهذا الديوان الذى عرف باسم ديوان الإنشاء [١] ، وصار صاحبه يقوم بنفس المهام التى يضطلع بها وزير الخارجية فى المصطلح الحديث ، ولا سيما من حيث الإشراف على إعداد السفراء .

وحرص الخلفاء بالرغم من هذه الإدارات الدقيقة على اختيار المرشحين للسفارة بأنفسهم . ومن أمثلة تلك الاختبارات الطريفة ما حدث لأحد المرشحين للسفارة

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩٠

إلى بلاد الـــروم لتمثيل الخلافة الأموية ، وهو عامر ابن شراحيل الشعبي . فقد كان هذا المرشح من فقهاء الكوفة وعلمائها ، وحجة فى تاريخ العرب قبل الإسلام وأنسابهم وأشعارهم[١] . ووقع عليه اختيار الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق إذ ذاك ليبعث به إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، الذى أراد أن يبعث سفيراً إلى بلاط الروم . وعندما قابل الشعبي الخليفة جرى الاختبار التالى :

قال الخليفة : ياشعبى ، ما العلم ؟
فقـــال : هو ما يقربك من الجنة ، ويباعدك من النار .
قال الخليفة : يا شعبى ، ما العقل ؟
فقـــال : ما يعرفك عواقب رشدك ، ومواقع غيك .
قال الخليفة : متى يعرف الرجل كمال عقله ؟
فقـــال : إذا كان حافظاً للسانه ، مدارياً لأهل زمانه ، مقبلا على شأنه .
قال الخليفة : أنشدنى يا شعبى أحكم ما قالته العرب وأوجزه ؟
فقـــال : يا أمير المؤمنين قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشـتم يشتم

وقول النابغـة :

ولست بمستبق أخـاً لا تلمـه
على شعث أى الرجال المهذب ؟

وقول عدى بن زيد :

عن المـرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قـرين بالمقارن يقتدى

وقول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهـلا
ويأتيك بالأخبـار من لم تزود

وقول الحطيئة :

من يفعل الخـير لا يعدم جـوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس (٢)

وانتقل الخليفة بعد ذلك إلى امتحان الشعبي امتحاناً أشبه باختبارات الذكاء اليوم ، والتى تبين مقدار ضبط المرء لنفسه . وكان الشعبي ضئيل الجسم ، لا يبعث منظره لأول مرة على العلم الغزير الذى يعرفه .

فقال له الخليفة عبد الملك : « إنك لدميم يا شعبى ! »
فأجاب الشعبي على الفور : « زوحمت فى الرحم يا أمير المؤمنين »[١] كناية عن أنه ولد توأم .

وزاد إعجاب عبد الملك ما شاهده عند الشعبي من خفة روح ، وقدرته على الدعابة الطريفة ، وهى أمر يستحب توافره فى السفير . فروى للخليفة نادرة حدثت له ، إذ طلب رجل امرأة ، وجاء أهلها إلى الشعبي لاستشارته . فقال لهم الشعبي : هو رجل رزين المقعد ، نافذ الطعنة ، فزوجوه . ثم علم أهل المرأة أنه خياط ! : فقالوا للشعبي : غررتنا . فقال : ما كذبتكم ! . ثم روى أيضاً أن جماعة من الناس سألوه مرّة : ما اسم امرأة إبليس : فقال إن ذلك العرس ما شهدته[٢] .

وبذلك أثبت الشعبي مقدرة فائقة جعلته يجتاز الامتحان بدرجة عالية ، تجلت فى قول الخليفة له : يا شعبى ، إنك لكنَيِّف علم[٣] . وكشف الشعبي عن صدق نظر رجال الدولة والخليفة كذلك حين سافر إلى بلاط الروم ليتفاوض باسم الخليفة عبد الملك ابن مروان . إذ كانت دولة الروم تعتبر على درجة عالية من حيث فهم التقاليد الدبلوماسية ، فضلا عن قدرة حكامها على إحراج السفراء المبعوثين إلى القسطنطينية ، ولكن الشعبي استطاع أن يثبت للروم أن العرب لا يقلّون عنهم جدارة فى هذا الميـــدان السياسى الجديد ، على الرغم من أن دولتهم مازالت فتيّة . فقد حاول إمبراطور الروم فى أول مقابلة للشعبي أن يختبر مدى ولائه لخليفته ، فقال له : « أنت أحق بموضع صاحبك منه (أى أحق من الخليفة) »

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٦ ، ص ١٧١ .
(٢) ابن عساكر ، مهذب تاريخ ابن عساكر ، ج ٧ ، ص١٤٤

(١) ابن الفراء ، رسل الملوك (حققه صلاح الدين المنجد) ص ٢٠
(٢) تاريخ ابن عساكر ، ج ٧ ، ص ١٤٥
(٣) تاريخ ابن عساكر ، ج ٧ ، ص ١٤٦ ؛ ابن الفراء ، المرجع السالف ، ص ٥٢

ولكن الشعبي أجاب الإمبراطور على الفور إجابة رائعة مفحمة حيث قال : « على بابه (أى باب الخليفة) . عشرة آلاف كلهم خير منى » (١) .

ولم يفلح الإمبراطور كذلك فى التغلب على الشعبي فى ميدان الدعابات الدبلوماسية ، إذ سأل السفير العربى ، هل للعرب من الأمثال مثل أمثال العجم ؟ . فقال الشعبي : نعم ، وعندنا مثل ليس فى الأرض مثله . فقال الإمبراطور : وما هو ؟ . قال الشعبي : يا ابن آدم ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت . وكان الشعبي كبير السن ، وخضب (صبغ) لحيته البيضاء باللون الأصفر ، حين ذهب فى سفارته إلى بلاط الروم تجمُّلا منه . وعندما نظر الإمبراطور إلى لحية الشعبي قال له : يا شعبى ، لم غيرت لحيتك بصفرة ، ألا صبرت على البياض كما ابتليت ، أو رددتها إلى نسجها الأول ، فخضبت بالسواد ؟

فأجاب الشعبي : هذى سنة نبينا . ولم يستطع الإمبراطور إلا أن يقول : ما جاء به النبيون فليس فيه حيلة . (٢)

وبعد أن انتهى الشعبي من سفارته التى لم تكشف لنا المراجع شيئاً عن غرضها أو ما دار فيها من اتفاق ، شأن كثير من المفاوضات السياسية اليوم التى تتخذ طابعاً سريًّا ، عاد إلى دمشق ، ومعه خطاب مغلق من الإمبراطور إلى الخليفة الأموى . ولما فتح عبد الملك الخطاب وجد مكتوباً فيه : « العجب لقوم فيهم مثل هذا (أى الشعبى) يملكون غيره ! » . وعندئذ خشى الشعبي أن يظن به الخليفة الظنون ، وأن يفهم من تلك الرسالة أنه ارتكب أموراً سيئة فى حق الخلافة أثناء وجوده فى بلاط الروم ، فقال للخليفة : « يا أمير المؤمنين ، قال الإمبراطور ذلك ، لأنى كبرت فى عينيه ، ولأنه لم يرك ، ولو رآك لاحتقرنى ! » . (٣)

(١) ابن الفراء ، المرجع السالف ، ص ٥٢
(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ١٤٥
(٣) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٤٦

غير أن الخليفة طمأن الشعبي ، وأظهر له مقصد الإمبراطور من ذلك ، فقال : « أحسنت فى سفارتك يا شعبى ! ولكن أتدرى ما أراد الإمبراطور بما كتب ؟ » . فقال الشعبي : لا . فقال الخليفة : « حسدنى الإمبراطور عليك ، فأراد أن يغرينى ويحملنى على قتلك » . (١)

غير أن العرب اهتموا عند انتقاء السفراء بضرورة توافر عدة صفات هامة فيهم ، ولا يلجئون إلى استخدام أمثال الشعبي إلا حين يلمسون فيهم ذكاء خارقاً للعادة ، يعوضهم ما قد يفتقرون إليه من الصفات اللازمة فى المرشح للسفارة . فإلى جانب الاختبارات التى أجراها الخلفاء والمختصون لانتقاء سفراء تطلبوا عدة أمور : منها الصفات الجسمانية والخلقية ، والثقافة الواسعة . واهتم العرب بالصفات الجسمانية وجعلوها فى المكان الأول ، حيث قالوا : «يستحب فى الرسول تمام القد ، وامتداد الطول ، وعبالة الجسم ، فلا يكون قميئاً أو ضئيلا ، وأن يكون جهير الصوت وسيما ، لا تقتحمه العيون ، ولا تزدريه النواظر » . وشرح رجال الدبلوماسية العرب هذه الحقيقة السالفة بقولهم : « وإن كان المرء بأصغريه ، مخبوءاً تحت لسانه ، ولكن الصورة تسبق اللسان والجسمان يستر الجنان . وينبغى أن يجمل الرسول بكل ما أمكن ، لأن العامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية ، ثم إن أعين الملوك تسبق إلى ذوى الرداء من الرسل ، وتطلب ذلك فى رسلها لئلا ينقص اختبارها خطاً من خطوط الكمال ، ولأنها تنفذ واحداً إلى أمة ، وفذا إلى جماعة ، وشخصاً إلى شخوص كثيرة . ولذا كان لا بد أن يكون السفير وسيماً جسيماً يملأ العيون المتشوقة إليه فلا تقتحمه ، ويشرف على تلك الخلق المتصدية له فلا تستصغره »(٢).

وإلى جانب الصفات الجسمانية اهتم العرب بالصفات الخلقية ، ومنها أن يكون السفير على درجة كبيرة من نفاذ الرأى وحصافة العقل تجعله يستنبط غوامض الأمور ويستشف سرائر القلوب ويأتى عمله عن بينة . ويجب أن يكون فصيحاً . « ليعجب السامع بطلاوة حديثه ، ويسحره بحلاوة لسانه ، ويفتنه بخلابة لفظه ، ثم ليكون كلامه

(١) ابن الفراء ، المرجع السالف ، ص ٤٦
(٢) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٢٠

متعاً أنيقاً ، ناقداً لذاً فى الاستماع فإن للبيان من السحر مالا ينكر ، وإن له فى التوصل إلى البغية ما هو معروف » .

وكان السفراء العرب يُلقّنون بعض التعاليم التى تساعدهم على دعم صفاتهم الخلقيـــة ، فمن ذلك الامتناع عن شرب الخمر بعد الوصول إلى مقرّ سفارتهم لأن الخمر تفضح شاربها فى أغلب الأحايين، وتكشف عن مكنون سره ، والابتعاد عن مصاحبة النساء لأن لهن حيلاً بارعات يستخرجن بها الأخبار [١] .

وتجلت تلك الصفات الرائعة التى تحلى بها السفراء المسلمون فى شخصية نصر بن الأزهر الذى بعث به الخليفة المتوكل العباسى سفيراً عنه ليتفاوض مع سلطات الروم بالقسطنطينية سنة ٢٤٦هـ / ٨٦١ م . وكانت تلك السفارة العباسية ردًّا على سفارة بعث بها إمبراطور الروم وهو ميخائيل بن ثيوفيل سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م وطلب فيها إقرار السلام بين العرب والروم وإجراء تبادل للأسرى بينهما [٢] . وأعدّت السلطات للسفير العربى أوراق الاعتماد وجواز السفر ، وهما عبارة عن كتاب صادر عن لسان الخليفة ، به تعريف بالسفير والغرض من رسالته ، ويطلب من أولى الأمر الوافد عليهم السفير اعتماده فى أقواله وأفعاله . وجرت العادة على أن تكتب أوراق الاعتماد على الورق البغدادى ، وهو أجود الأنواع ، لأنه تخين مع ليونة ورقة .

وعندما وصل نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية بهر رجال الروم بتمسكه بالتقاليد الدبلوماسية الرفيعة ، وحرصه على ألا يقع فى مأزق يسىء إلى دولته . فكان يرتدى يوم استقباله أبهى الملابس الرسمية ، وهى سوداء اللون .. وكانت الزىّ الرسمى للعباسيين ، وعلى رأسه القلنسوة ، وهى لباس الرأس الرسمى

(١) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٢٥ .

(٢) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 227.

الخاص بالعباسيين كذلك ، ومتمنطقاً سيفاً وخنجراً ، وحاول رئيس بلاط الـــروم ... وهو إذ ذاك « بترو ناس » خال الإمبراطور ــ أن يمنع السفير العربى من الدخول بهذا الزى الرسمى ، حيث اعترض بصفة خاصة على الملابس السوداء وعلى السيف ، غير أن السفير العربى الحريص على تقاليد دولته الدبلوماسية غضب وهمّ راجعاً ، مما اضطر سلطات الروم إلى ملاطفته وإصلاح خطئها الدبلوماسى بإرضائه حتى عاد إلى البلاط .

وروى ابن الأزهر ما حـــدث له فى قوله :

« ولما صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادى وسيفى وخنجرى وقلنسوتى ، فجرت بينى وبين خال الملك « بترو ناس » المناظرة ، وهو القيم بشأن الملك ، وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادى ، فقلت : أنصرف ، فانصرفت ، فرددت من الطريق ، ومعى الهدايا ، نحو من ألف نافجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف . وقد كان أذن لوفود دبرجان (وهم من جيران دولة الروم) وغيرهم من ورد عليه . وحملت الهدايا التى معى ، فدخلت عليه ، فإذا هو على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة(١) حوله قيام ، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير ، ، وقد هيىء لى مجلسى ، ووضعت الهدايا بين يديه . وبين يديه ثلاثة تراجمة .... فقالوا لى : ما نبلغه ؟ ، قلت : لا تزيدوا على ما أقوله لكم شيئاً ، فأقبلوا يترجمون ما أقول : فقبل الهدايا ، ولم يأمر لأحد منها بشىء وقربنى وأكرمنى ، وهيأ لى منزلا بقربه ، فخرجت فنزلت فى منزلى » . (٢)

وأظهر نصر بن الأزهر بذلك كياسة دبلوماسية رائعة نمّت عن حسن استعداده السياسى ، حين أمر المترجمين بتوخى الدقة فى نقل كلامه ، كما أنه كان حريصاً على أن يُظهر احترام الروم له حين ذكر أنه جلس فى مكان قرب السرير الكبير ، أى حيث يجلس الإمبراطور ، وأنه بذلك كان مقدماً على سائر سفراء جيران دولة الروم ، الذى شهـــدوا هذا الاستقبال الرسمى ، فكانت دولة الروم ترعى التقاليد

(١) البطارقة ، هم كبار رجال الدولة وقادة الجيش .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ١١ ، ص ٦١

الدبلوماسية مع العرب وتخصص لسفرائهم مركز الصدارة فى حفلات الاستقبال .

وكانت سلطات الروم بالقسطنطينية تعد برامج للحفاوة والترحيب بالسفراء العرب ، ومنها مشاهدة ميدان السباق (Hippodrome) ، الذى كان يعتبر مرآة للحياة الاجتماعية بعاصمة الروم ؛ ذلك أنه لم يكن مقصوراً على حفلات السباق ، وإنما كانت تعرض فيه الألعاب البهلوانية التى يقدمها قوم أجادوا هذا الفن الشعبى ، ويشاهد السفراء العرب هذا العرض من مقصورة خاصة تقع مباشرة إلى جانب مقصورة الإمبراطور نفسه ، إمعاناً فى إكرامهم . وزار السفراء العرب كذلك كنيسة أيا صوفيـــا ، حيث بلغ الفن البيزنطى وجمال البناء روعته فى هذا المكان ، كما كانت الدلايات والمباخر الفاخرة تأخذ بالألباب ، وتثير الروعة فى النفوس[١] .

وظل نصر بن الأزهر موضع التكريم ، كما قدمت له السلطات بالقسطنطينية كل التسهيلات لمشاهدة الأسرى من العرب بالعاصمة ، ودراسة أحوالهم وإحصاء عددهم . وكان أسرى العرب يعاملون معاملة طيبة من جانب الروم بسبب ما تتمتع به دولتهم من مكانة عالية ، فكان بالقرب من قصر الإمبراطور دار خاصة بكبار الأسرى العرب ، ليكونوا تحت رعاية الإمبراطور مباشرة ، أما سائر الأسرى من العرب فكانوا يوزعون للعمل فى المرافق العامة لدولة الروم كل حسب ما يعرفه من صنعة أو حرفة . وفى الوقت نفسه لم تكره سلطات دولة الروم الأسرى العرب على تغيير دينهم ، وكذلك لم تُلزمهم بأكل لحم الخنزير أو غيره من الأشياء التى يحرّمها الدين الإسلامى . وخصصت دولة الروم لأسارى المسلمين مناسبات يرفهون فيها عنهم ، ولا سيما فى يوم عيد

(١) Runciman, Byzantine Civilization, 155
ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ص ١٢٠

ميلاد السيد المسيح[١] .

وأظهر نصر بن الأزهر كياسة دبلوماسية فى سبيل أداء مهمته ؛ ذلك أن دولة الروم عمدت إلى عرقلة المفاوضات الخاصة بتبادل الأسرى لتحمل الخلافة على تسليم بعض مناطق الأطراف الشامية لها ، وتغافل إمبراطور الروم عن السفير العربى مدة أربعة أشهر ، ولم يظهر نصر بن الأزهر اهتماماً بما حدث من جانب سلطات الروم ، وبقى ضابطاً لنفسه ، غير مقدم على عمل من شأنه قطع المفاوضات ... فاضطرت دولة الروم أخيراً ، بعد أن فوّت عليها السفير العربى قصدها ، أن تعقد الجلسة الأخيرة لإبرام الاتفاق الخاص بتبادل الأسرى .

وحرص السفير العربى على أخذ جميع المواثيق المؤكدة لما فيه مصلحة دولته . فكان خال الإمبراطور يتولى المفاوضات فى تلك الجلسة الختامية ويجيب على أسئلة السفير العربى من دون الإمبراطور الذى اقتصر وجوده على المشاهدة فقط ، وإذا اضطر إلى الكلام أجاب بهزّ رأسه بما يفيد « نعم » أو « لا » ، غير أن نصر بن الأزهر دأب على أن يعيد ما يتفق عليه مع خال الإمبراطور على الإمبراطور نفسه ، ويرى ماذا يجيب بهزّ رأسه حتى يكون الاتفاق تامًّا ومؤكداً من الإمبراطور نفسه . وعبّر السفير العربى عن نجاح مفاوضاته قائلا : « فأجابونى (أى السلطات فى القسطنطينية) إلى المحالفة ، فاستحلفت خاله ، فحلف عن ميخائيل . فقلت أيها الملك ، قد حلف لى خالك ، فهذه اليمين لازمة لك ؟ فقال برأسه نعم . ولم أسمعه يتكلم كلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها ، وإنما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا ، وليس يتكلم ، وخاله المدبر أمره ، ثم خرجت من عنده بالأسرى بأحسن حال ، حتى إذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملة ، وهؤلاء جملة (٢) » .

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ؛ ابن رسته ، المرجع السالف ، ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١
Vasiliev, op. cit., 239.

ولم يكن العرب بأقل حفاوة من الروم فى استقبال السفراء الوافدين عليهم . ومن ذلك ما حدث حين بعث إمبراطور الروم قسطنطين السابع بسفارة سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، إلى الخليفة المقتدر العباسى . فقد كان الاستقبال الذى أعدّ لتلك السفارة رائعاً ، إذ حين اقترب الركب من بغداد كانت العاصمة قد رتبت فى أبهى نظام ، حتى غدت « أسواق الجانب الشرقى وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة والنظارة . . وزينت كل غرفة مشرفة ودكان بأفضل زينة وأحسن ترتيب » . ثم أعدّ « قصر التاج » وهو المقر الرسمى للخلافة إعداداً رائعاً، وصفه شاهد عيان بقوله : « وكان عدد ما علق فى قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز والمصورة بالفيلة والخيل والجمال والسباع ثمانية وثلاثين ألفاً وخمسمائة ستر ، وعدد البسط فى الممرات والصحون التى وطىء عليها القواد ورسل صاحب الروم سوى ما فى المقاصير والمجالس من الأنماط اثنين وعشرين ألف قطعة (١) » .

واستقبل الخليفة السفارة « وهو جالس فى التاج مما يلى دجلة ، بعد أن لبس بالثياب الدبيقية (نسبة إلى دبيق من مدن مصر) (٢) المطرزة بالذهب ، على سرير أبنوس ، قد فرش بالدبيقى المطرز بالذهب ، وعلى رأسه القلنسوة الطويلة ، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة » . وقدم رأس السفارة ، وكان شيخاً جليلا ، كتاب إمبراطورالروم ، وفيه طلب خاص بإجراء الفداء وإيقاف الحرب . وبعد انتهاء الاستقبال الرسمى ، أمر الخليفة بأن يسمح لأعضاء السفارة بمشاهدة القصر ، مبالغة منه فى إكرامهم والحفاوة بهم .

ووصف أحد المرافقين للسفارة بعض ما شاهده أعضاؤها من محتويات القصر قائلا : « وكان فى هـذه الدار من أصناف الوحوش التى أخرجت إليها من الحير قطعان تقترب من الناس ، وتتشممهم وتأكل من أيديهم . ثم أخرجوا (أى أعضاء السفارة) إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج ،... ومنها إلى دار الشجرة وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب ، وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان متحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً .... وكان عدد كثير من الخدم فى سائر القصور يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والأشربة ، ومنهم من كان يطوف مع الرسل ، فلطول المشى بهم جلسوا واستراحوا فى سبعة مواضع ، واستسقوا الماء فسقوا » . وبعد انتهاء السفارة ، بعث الخليفة إلى اثنين من رؤسائها خمسين بدرة ورقا ، فى كل بدرة خمسة آلاف درهم [١]

ولم يقتصر ذهاب السفراء العرب إلى بلاط الروم فى القسطنطينية ، وإنما ذهبوا كذلك إلى غرب أوروبا ، حيث دولة الفرنجة ، ولا سيما عند ما علا شأنها فى عهد الدولة الكارولنجية [٢] . فقد بعث الخليفة ابو جعفر المنصور العباسى سفراءه إلى بلاط بيبن Pepin ملك الفرنجة ، وذلك لعقد معاهدة صداقة وتحالف معه ضد عبد الرحمن الداخل ، وهو سليل البيت الأموى الذى استطاع الفرار من بطش العباسيين وهرب إلى الأندلس حيث استقل بها عن الخلافة العباسية . فأراد أبو جعفر المنصور أن يجعل من تحالفه مع الفرنجة بغرب أوروبا شبحاً يخيف عبد الرحمن الأموى بالأندلس ، ويمنعه من الاتساع [٣] .

على أن نشاط العرب مع غرب أوروبا اتسع

(١) البغدادى ، تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١٠٢ — ١٠٥
(٢) دبيق: كانت تقع بالقرب من دمياط ، واشتهرت بالثياب المطرزة الثمينة ، وقد وصف الجغرافيون العرب مثل المقدسى وابن حوقل تلك المدينة وصناعة المنسوجات بها .

(١) البغدادى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٠٢ — ١٠٥
(٢) تولت الدولة الكارولنجية شئون الفرنجة سنة ٧٥٢ م . وتنسب إلى قارله .. وهو كارل الذى انتصر على المسلمين فى وقعة تور — بواتييه المعروفة باسم بلاط الشهداء . وصار للدولة الكارولنجية المركز الأسمى بغرب أوروبا فى عهد إمبراطورها شرلمان .
(٣) انظر :
Bury, History of the later Roman Empire, II, 159.

حين ولى شرلمان شئون دولة الفرنجة ، وبعث بسفارة إلى الخليفة هارون الرشيد لعقد تحالف معه ، وليجعل من نفسه حامى المسيحيين الذاهبين إلى الحج بفلسطين من دون إمبراطور الروم ، ورحب هارون الرشيد بهذا الطلب ، ووجد فيه فرصة لدعم التحالف الذى سبق أن قام به أبوجعفر المنصور مع الفرنجة ، وبعث سفارة عربية لمقابلة شرلمان .

واستدعى هارون الرشيد أحد خاصته ، وعهد إليه تولى رياسة تلك السفارة . ثم استدنى رئيس السفارة وقال له : « إنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام ، ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج إلى بيت المقدس من ملته ، فرأينا أن نوجهك بلطائف تروم إليه أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية نرغب فيها إليه من التعصب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس ، فإذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة » (١) .

وخرجت السفارة من بغداد فى طريقها إلى بيروت ، ومنها أبحرت إلى ميناء مرسيلية بعد رحلة استغرقت عشرين يوماً . وكانت السفارة تحمل هدايا قيمة ، منها فيل عظيم أبيض ، كان أحد ملوك الهند قد بعث به إلى المهدى والد الرشيد ، وكذلك أقمشة فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب ، وبسط من طبرستان ، وعطور من اليمن والحجاز ، ومسك وأعواد ندّ من الهند ، وشطرنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش .

واستقبل شرلمان السفارة العربية وأعضاءها ، وهو جالس على منصة محلاة بالذهب وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت ، وفى يده قضيب الملك وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهرة والحراب . وأبلغ السفير رسالة هارون الرشيد إلى شرلمان ، الذى تقبلها بالشكر . ثم استعرض الهدايا مما زاده بهجة وسروراً ، غير أن الجانب السياسى من السفارة لم يتحقق حيث أظهر شرلمان عدم استعداده لحرب بنى أمية بالأندلس [1] .

وهناك جانب آخر طريف استهدفته السفارات العربية ألا وهو دعم الروابط الثقافية بين العرب وجيرانهم أشبه بالمهمة التى يقوم بها المستشارون الثقافيون فى سفارات الدول الحديثة اليوم ، فكان الخلفاء وأباطرة الروم يتبادلون السفارات الخاصة بدراسة الكتب النادرة التى توجد فى حيازة الطرفين ، أو فى مكتباتهما العامة ، وكذلك لاستدعاء كبار العلماء للمساهمة فى الحركة العلمية فى بلادهما ، أو لتسهيل مهمة بعض الطلاب لتلقى العلم فى الجامعات الكبرى فى عواصم دول العرب والروم . ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المأمون العباسى علم أن بالقسطنطينية أستاذاً مشهوراً فى الرياضيات يدعى «ليو» ، ورغب فى استدعائه إلى بغداد ، وأرسل إلى إمبراطور الروم — وهو إذ ذاك ثيوفيل — سفارة خاصة تحمل رسالة شخصية تطلب منه أن يسمح للأستاذ «ليو» بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة . وقال المأمون فى رسالته ، إنه يعتبر ذلك عملا ودياً ، ويعرض على الروم صلحاً دائماً وألفَىْ قطعة ذهبية فى مقابل ذلك [2] غير أن إمبراطور الروم رفض هذا العرض السخى لأن أبحاث العلماء على نحو ما نشاهده اليوم ، تعتبر سراً من أسرار الدولة ، ولا سيما إذا كانت تتعلق بأمور تفيد الناحية الحربية .

ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادرة ، وإنما شملت أغراضها دراسة الأماكن التاريخية التى تتعلق بأحداث العرب ، أو مما ورد ذكره فى القرآن الكريم . ومن أشباه هذه الاتصالات العلمية تلك السفارة التى أرسلها الخليفة العباسى الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧ م) إلى إفيسوس بأسيا الصغرى

(١) جميل نخله المدور ، حضارة الإسلام فى دار السلام .

(١) بينز ، الدولة البيزنطية ، (ترجمة حسين مؤنس) .
(٢) ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك (ليدن) ص ١٠٦ — ١٠٧

وكانت تابعة لدولة الروم ، لتزور الكهف الذى كانت محفوظة فيه جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا أيام الإمبراطور دقلديانوس .. والذين ورد ذكرهم فى سورة الكهف فى القرآن الكريم .

ومنح إمبراطور الروم ميخائيل الثالث تلك السفارة العربية تفويضاً خاصًّا لزيارة ذلك الكهف كما بعث معها رجلا ليقوم بمهمة الإرشاد ويؤدى دور الدليل أثناء تجوال السفارة . ووصف السفير العربى ، وهو محمد بن موسى المنجم مشاهداته عن أهل الكهف فى مدينة إفيسوس قائلا : عندما وصلنا إلى المدينة

شاهدنا جبلا يؤدى « إلى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم ، فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته ، فإذا بئر محفورة لها سعة ، وتبينا الماء فى قعرها ، ثم نزلنا إلى باب السرداب ، فمشينا مقدار ثلثمائة خطوة ، فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه ، فإذا رواق فى الجبل... وفيه عدة أبيات ، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة ، عليه باب حجر منقور فيه الموتى ، ورجل موكل بحفظهم .... وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة ، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم . فقلت له ، دعنى أنظر إليهم وأنت برىء ، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى ، فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد ، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم ، غير أنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره ، وقوة نباته » .

وهكذا كان السفراء العرب فى العصور الوسطى عنوانا على مابلغته دولتهم من رقى حضارى ، ومجد سياسى وحربى ، وقد رفعوا رأسها عالياً فى شتى الميادين وفى كل مكان نزلوا به من أرض أوروبا ، كما تركوا وراءهم تراثاً قيماً ، وتعاليم عالية ، تهدى العرب اليوم فى يقظتهم ، وتحديد علاقاتهم مع جيرانهم من الدول الكبرى فى الوقت الحاضر .

